مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف المرسلين، وعلى من تبعه بإحسان من الآل والصحب أجمعين، وعلى من سار على النهج واقتفى الأثر إلى يوم الدين.

فبعد صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب، ونظراً لِمَا لَقِيَتْهُ من استحسان في نفوس أولي الألباب والتذكار، ومن قبول واسع لدى أولي الأفئدة والأبصار، ومن اهتمام كبير لدى أهل الاختصاص والاستبصار، هاهي الطبعة الثانية أقدمها بعد نفاذ الطبعة الأولى -بحمد الله-، آملا أن ترفع الغيوم وتزيل الضباب عن فقه القلوب وطريق السير والسلوك إلى الله عز وجل.

فقد توارث عند علماء الأمة منذ صدر الإسلام وصار عُرفاً فيهم بأن «التصوف» هو العلم المتخصص في التزكية والسير والسلوك؛ قال ابن القيم في المدارج: «التصوف زاوية من زوايا السلوك الحقيقي وتزكية النفس وتهذيبها، لتستعد لسيرها إلى صحبة الرفيق الأعلى»، كما تبوأ التصوف مكانة هامة وأساسية داخل الحقل الإسلامي، وأخذ من المسلمين، منذ القرون الخيرة الثلاثة الأولى، اهتماماً ملحوظاً وجهداً كبيراً، وهو عند أهله - علمائهم وعامتهم والقائمين به- من أرفع العلوم وأدقها، ومن أخص المعارف وأشرفها. وقد سُمّي هذا النهج عند السلف بتسمياتٍ معبِّرة عن حقيقته ك: «منازل السائرين»، و«مدارج السالكين»، و«قوت القلوب»، و«فقه القلوب»، و«علم السلوك» و«علم التزكية» و«التربية الروحية» و«الربانية» وغيرها... وسُمّي أهله، كما عند الفقيه الأصولي الشاطبي، بـ: «أرباب السلوك» و«أرباب التربية» وغيرها... كما وقّع الإمام الشاطبي عن رب العالمين في شهادته عن الصوفية بقوله في الموافقات: «الصوفية باتفاق أهل السنة هم صفوة الله من الخليقة».

فالتصوف بهذا المعنى كان في زمن النبوة متألقا لا اسم له، وذلك من خلال ما كان عليه الرسول ﷺ من سمو روحي، وتزكية لصحابته رضوان الله عليهم،... بل إن معاني التصوف كانت متألقة في حياة الصحابة الكرام والتابعين؛ من إعمارٍ للقلوب، وتطهيرٍ للنفوس، وتهذيبٍ للجوارح، وتحليةٍ بالأخلاق، وتزكيةٍ للأعمال، إلى غير ذلك ممّا هو مُسطّر في دين الله،... ولم يكن لهذا العمل الرباني أي مصطلح يميزه...، وما لبث أن قامت طائفة من خيرة الأمة فاهتمت بعلوم الدين ووضعت لها مصطلحات تصون الدين وتحفظه؛ كعلوم الحديث والفقه والأصول والتفسير واللغة...، ومِن اهتمامهم بقدسية المعاني الروحية وضعوا لها كذلك قواعد وضوابط، واصطلحوا عليها بـ «التصوف».

وتأتي هذه الطبعة الثانية المزيدة والمنقحة، ردّا على من حمل المتشابه من كلام الصوفية على الفهم الخاطئ، ورمى هذا العلم التزكوي الأثيل، بأحكام مُسبَقة، وبغير تبصُّر، بعيداً عن التصور الشرعي والإدراك العلمي.

كما تأتي استئنافا لما بدأناه من محاولة في تصحيح بعض الفهوم المغلوطة حول التصوف، متقيدين بما يتطلبه البحث العلمي النزيه من تجرد ومصداقية، وبين ما ينبغي الالتزام به من المحافظة على الخصوصية والمذهبية التي توافقت عليها الأمة منذ ما يزيد على اثني عشر قرنا.

والله أسأل أن يوجِّه بهذا العمل إليه، وأن يهدي به، وأن يشرح به الصدور، ويُنير به العقول، إنه نعم المولى ونعم المجيب. ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (سورة هود، الآية: 88).

د. إسماعيل راضي